أحاديث في الفناء الفاطمي - المجلس الثالث

السبت: 11/2/2017 ــ 13 جمادي الأول 1438

✤ باقة من الأسئلة التي وجدتُها تتردّد بين إخوتي وأخواتي وأبنائي وبناتي، وسأجيب عنها بالجُملة بحديثٍ أبدؤه مِن قولةِ رسول الله صلّى الله عليه وآله: (رحِمَ الله امرئً عرف مِن أين وإلى أين) هذه الكلمة الموجزة تتحدّث عن البداية والنهاية..

(عرف مِن أين) إنّها نُقطة البداية.

(وعرف إلى أين) إنّها نُقطة النهاية.

وأقصرُ خطٍّ يصلُ بين النُقطتين - كما هو في الهندسة والرياضيات - هو الخطّ المُستقيم.. أقصرُ خطٍّ بين النُقطتين هو الذي نُردّده في صلواتنا: إنّه (الصراط المُستقيم)..، والزياراتُ الشريفة تتحدّث عن ذلك: (فبهم فتح الله وبهم يختم الله) فما بين الفاتحة والخاتمة يمتدّ الصراط المُستقيم الذي نطلبُ الهداية إليه، ونطلبُ الهداية فيه ونحنُ نُردّد آيات الكتاب الكريم في صلواتنا.

✤ وقفة عند حديث إمامنا الصادق عليه السلام في معنى: (الصراط المُستقيم):

(الصراط صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الذي في الدنيا فهو الإمام الذي مَن عرفه فقد نجا واهتدى، ومَن جهله فقد ضلّ وهوى). هذا صراطٌ نحنُ نُلامس فيضه في الحياة الدُنيا.. وصراطٌ في الآخرة الإمام يُترجمه لنا أنّه (جسرٌ ممدودٌ على جهنّم، فمَن والى صراط الدُنيا مرّ عليه سريعاً، ومَن تخلّف عن صراط الدُنيا هوى في جهنّم وأطباقها..)

✤ كيف نعرف الصراط المُستقيم؟! وقفة عرض سريع للأقوال المُختلفة التي قالها الناس عبْر التأريخ في وسطنا الشيعي، وبعدها أذكرُ لكم ما قاله أهل البيت عليهم السلام في معنى الصراط المُستقيم.

■ يعتقد البعض أنّ الإمام شخص مِن الأمّة يتميّز بأوصافٍ وخِصال تجعله في مقامٍ تتجلّى فيه مواهب وقُدرات مِن خلالها يستطيع أن يقود الأُمّة في طريق الخير وأن يُرشدها إلى الهداية.. وفي ظِلّ هذا التصوّر يأتي تعريفُ الإمام بأنّه: رئيسٌ في الدين والدُنيا، كما يُعرّفون الإمامة بأنّها رئاسة دينية ودنيويّة.. وهذا التعريف مأخوذٌ بالنصّ مِن الفكر والثقافة الشافعيّة ونُقل إلى كُتبنا وإلى ثقافتنا! ومنشأ هذا هو من الفهم الأعوج لمعنى الإمامة. (هذا هو فهم السقيفة لمعنى الإمامة) فأقطابُ السقيفة هكذا فهموا الإمامة: أنّها رئاسة كرئاسة القبائل والعشائر لا أكثر مِن ذلك.. فإنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله كان ملكاً كان سُلطاناً كان زعيماً ورئيساً عشائريّاً في قومه، فلّما رحل عن الدُنيا لابدّ أن يخلفه مَن يكون في محلّه وفي مكانه، أن يكون رئيساً قبائليّاً لا أكثر مِن ذلك! وجاءت الشيعة تُريد أن تُناقش هذا الموضوع فناقشته على نفس المُستوى إلّا أنّها أضافت أوصافاً للإمام جعلتْ مِن الإمام شخصاً مميزاً يتميّز ببعض الخصال ويتفوّق ببعض الأوصاف على رئيس قبائليّ!! وهكذا نشأت ثقافة الإمامة بعيداً عن منطق آل محمّد الذي يتجلّى بشكلٍ واضح في الزيارة الجامعة الكبيرة.

● حين نقرأ الزيارة الجامعة الكبيرة نجد أنّ المعاني التي أُودعتْ وخُزنتْ في هذا النصّ الشريف لا تمتّ بأي صِلةٍ مِن الصلات لمعنى الإمامةِ بهذا التصوّر الذي أشرتُ إليه والذي ذهب إليه فَهْمُ الواقع الشيعي.

■ حين نُخاطب أهل البيت عليهم السلام بهذا الخِطاب في الزيارة الجامعة الكبيرة: (وإيابُ الخَلْق إليكم وحسابهم عليكم) ما علاقة هذه المضامين بأنّ الإمامة رئاسةٌ دينية ودُنيوية؟!

العبارة في الزيارة تقول (إيابُ الخلْق) كلّ الخُلق وليس الناس.. علماً أنّ الحديث هنا ليس عن يوم القيامة، وإنّما إيابُ الخلق في كلّ أحوالهم في كلّ طبقاتِ هذا الوجود.. وحسابهم أيضاً - أي الخلائق - عليكم (فالحديث ليس عن يوم القيامة.. فيوم القيامة يُمثّل مرحلة مِن مراحل الحساب لبني آدم). الحديث هنا عن الخلق عموماً.. والإيابُ

والحسابُ يجري في كلّ ثانية، بل فيما هو أقلّ من الثانية.. فأين هذا مِن وصف الإمامة من أنّها رئاسةٌ دينية أو دنيوية؟!

(علماً أنّي لا أنفي هذا الوصف: أنّ الإمامة رئاسة دينية ودنيوية، ولكن هذا الوصف هو في حاشية معنى الإمامة، بل في حاشية الحواشي، فلا قيمة لمعنى الإمامة بهذا الوصف).

● وصفُ الرئاسة الدينية والدنيوية لو كان يُمثّل حقيقة الإمامة لَما استطاع الأوغاد أن يسلبوا هذا الوصف.. الإمامة منزلةٌ ربوبيّةٌ ذاتيةٌ لهم صلوات الله عليهم لا يُمكن أن تُسلبَ عنهم.. مثلما أنّ الإنسانية معنىً لا يستطيع أحدٌ أن يسلبه منّا.. فمعنى الإنسانية ذاتيٌ فينا، ومعنى الإمامة ذاتيٌ فيهم صلوات الله عليهم، فلا يُمكن أن تُسلب منهم.

■ حين نُخاطبهم صلواتُ الله عليهم في الزيارة الجامعة الكبيرة: (وذلّ كُلّ شيءٍ لكم) أين هذا مِن معنى الإمامة بهذا العنوان الضحْل التافه من أنّ الإمامة: رئاسةٌ دينية ودنيوية. هذا التعبير (وذلّ كُلّ شيءٍ لكم) هو نفس المضمون الذي نقرؤوه في دعاء كُميل (وبقدرتكِ التي ذلّ لها كُلّ شيء) العبارة هي العبارة، والمضمون نفس المضمون.

علماً أنّ حتّى هذه العبائر العميقة في الزيارة الجامعة الكبيرة لا تتحدّث عن تمام معنى الإمامة.. وإنّما هي نفحاتٌ من معنى الإمامة.. فالإمامة في ثقافة أهل البيت معناها أوسع وأوسع من ذلك.

(فهناك مَن يتصوّر الإمامة بهذا التصوّر الساذج، يتصوّرها بهذا المعنى البدوي القبائلي العشائري..) ومِن هنا يأتي النقاش في أنّ الإمام: يسهو، لا سهو.. ينسى، لا ينسى.. في أنّ الإمام يترك الأولى، لا يترك الأولى.. في أنّ الإمام يعلم الغيب، لا يعلم الغَيب.. في أنّ الإمام يزداد علمه فهو في حالة علم ناقص.. هذه التفاصيل التي تترا في ساحة الثقافة الشيعية تتفرّع على هذا الفهْم.

● أمّا حينما ننظر إلى هذه الجهة (وذلّ كُلّ شيءٍ لكم) كيف يذلّ كلّ شيءٍ لهم وتمرّ عليهم حالةُ نسيان؟! إذا كان كُلّ شيءٍ يذلّ لهم تحت سُلطتهم فكيف تمرّ عليهم حالةُ غفلة، وكيف يكون علمهم ناقصاً وكلّ الأشياء تذلّ لهم؟!! (سيكون الحديث حينئذٍ هُراءً مِن القول). في ظلّ هذا التصور الساذج لمعنى الإمامة ينشأ هذا الفهْم مِن أنّ الإمام قائدٌ سياسي، وتُبنى ثقافةٌ على هذا الأساس!

■ النُخعي حين سأل الإمام الهادي عليه السلام وقال له: (علّمني يابن رسول الله قولاً بليغاً كاملاً أقوله إذا زرتُ واحداً منكم).. الإمام الهادي علّمه الزيارة الجامعة الكبيرة. فهو طلب من الإمام وبحسب مُقتضى الحِكمة قطعاً سيأتي الجواب على قدر السؤال.. فالزيارة الجامعة الكبيرة تمثّل القول البليغ الكامل، ولكن رُغم ذلك فالزيارة الجامعة الكبيرة لا تتحدّث عن تمام معنى الإمامة، وإنّما تتحدّث عن جهات من معنى الإمامة، فمعنى الإمامة أوسع من ذلك إذا أردنا أن نعود إلى بقيّة حديثهم وكلماتهم صلوات الله عليهم.. ومع ذلك نحن سنقف عند هذا الدستور العقائدي والقانون المعرفي وهو (الزيارة الجامعة الكبيرة).

✤ المُصطلحات والتعاريف تكون أساساً تُبنى عليه تفاصيل المعرفة.. فحينما نتصوّر أنّ الإمام (مُصطلح اجتماعي) مثلاً.. فإنّنا سنرسم صورة من التفاصيل عن الإمام ونحصره في عنوان (الإصلاح الاجتماعي).. وحينما نضع سوراً للإمام على أنّه (قائدٌ سياسي) فإنّنا سنُنشئ عقيدةً في ظِلّ هذا المُصطلح، في ظل هذا العنوان وهكذا..

أمّا القرآن فإنّه يفتح مُصطلح (الإمام) على المالانهايات {وكُلّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مُبين} وسيّد الأوصياء صلوات الله عليه يقول: أنا ذلك الإمام المُبين الذي أحصى الله فيه كُلّ شيء.

فهل تفتح الثقافة الشيعية الإمامة بهذا الفتح القرآني للإمامة؟!

■ لو رجعنا إلى الرموز الثقافية في الواقع الشيعي (الحُسينيات، المنابر، الفضائيات، المكتبات...) لو بحثنا فيها بدّقة لوجدنا أنّ مصادر الثقافة هذه تقرض مفهوم الإمامة وتقرض الإمام شيئاً فشيئاً.. وكُلّ مجموعة تصنع للإمام المعصوم قالب معيّناً.. يُريدون أن يُفصّلوا أهل البيت بحسب ما هم يُريدون بحسب ثقافتهم المُخترقة بالفكر المُخالف!

أمّا منطق القرآن فهو قالب لا حدود له {وكُلّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مُبين} فكلّ شيء يقع تحت هذه العبارة (كُل شيء في عالم الشهادة، في عالم الغَيب، ما كان، ما يكون، ما هو كائن، في العوالم السُفلية والعلوية، ما نعلمه، وما لا نعلمه كلّ شيء)

وهذا المضمون هو نفسه الذي أشارت له الزيارة الجامعة الكبيرة في جهة مِن جهاتها حين تقول: (وجعلكم بعرشهِ مُحدقين) فهم صلوات الله عليهم عين الله الناظرة التي أحاطت بهذا الوجود.

(جعلكم بعرشهِ مُحدقين) يعني هم أوسع من العرش الذي هو أوسع من الكُرسي.. وهذا الكرسي وسع السماوات والأرض بنصّ القرآن {وسِع كُرسيّه السماوات والأرض} فهم صلوات الله عليهم الحقيقة الواسعة التي نُخاطبها في الزيارة الجامعة الكبيرة (وأمرهُ إليكم). ✤ أسئلة أطرحها وبشكلٍ سريع كي أصل إلى الخُلاصة التي أُريد الوصول إليها :

- هل الحقيقة المُحمّدية هي الله..؟! الجواب كلا. (وأنا أتحدّث هنا عن ثقافة الكتاب والعترة بحسب ما أفهمها).
- هل أنّ الله قد حلّ في الحقيقة المُحمّدية؟ الجواب: كلا.
- هل أنّ الله قد اتّحد مع الحقيقة المُحمّدية؟ الجواب: كلا.
- هل الحقيقة المُحمّدية شريكٌ لله؟ الجواب: كلا.
- هل كانت الحقيقة المُحمّدية في وجودها مُقارنةً لوجود الله؟ يعني هل هي حقيقة قديمة كقدم الله تعالى؟ الجواب: كلا.
- هل الحقيقة المُحمّدية بديلٌ عن الله؟ الجواب: كلا.
- هل الحقيقة المُحمّدية حين فوّضها الله صار مُعتزلاً وصارتْ القُدرة في الحقيقة المُحمّدية؟ الجواب: كلا.

علماً أنّ كل هذه الأقوال التي نفيتُها موجودةٌ ، وهناك فرقٌ على طول التأريخ تقول بها.

■ الحقيقةُ المُحمّدية وجودٌ مخلوق.. وهو الذي تحدّثتْ عنه الأدعية الشريفة وعبّرتْ عنه بـ(الإسم الأعظم الأعظم، الأعزّ الأجل الأكرم، الذي خلقته فاستقرّ في ظلّك فلا يخرج منك إلى غيرك).. هذه هي خصوصيّة الحقيقة المُحمّدية.

الحقيقة المُحمّدية حقيقة إلهية ليست كحقائقنا.. هي مخلوقة، ولكن لم تُخلق كخلقنا، كما تقول كلماتهم الشريفة صلوات الله عليهم: (أوّل ما خَلَق الله خلق المشيئة بنفسها، ثُمّ خَلَق الأشياء بالمشيئة) نحنُ خُلقنا بالمشيئة، أمّا هم خُلقوا بنحو آخر لا نعرفه ولا نعرف حقيقته وتفاصيله.. ولا تصل إلى ذلك عقولنا.

الحقيقة المُحمّدية هي المشيئة التي تحدّثت عنها الرواية التي ذكرتها لكم، وهي الإسم الأعظم الذي أشارت له الأدعية الشريفة (الذي خلقته فاستقرّ في ظلّك فلا يخرجُ منكَ إلى غيرك).. الحقيقة المُحمّدية هي التي تعدّدت أسماؤها وأوصافها (أوّل ما خلق الله العقل، أوّل ما خلق الله العرش، أوّل ما خلق الله القلم، كان الله ولم يكن معه شيء ثُمّ تكلّم بكلمة فكانت نوراً..)

كلّ هذه الأسماء والأوصاف تُشير إلى الحقيقة المُحمّدية التي هي مضمون معنى الإمامة.. هذه هي الإمامة عند أهل البيت وما يتجلّى منها في العالم الأرضي هي صورة مُنعكسة عن تلك الإمامة تتجلّى بما يتناسب وهذا العالم.

● الحقيقة المُحمّدية المُحيطة بهذا الوجود هي اسم الله الأعظم، والإسم الأعظم للحقيقة المُحمّدية في الأرض نبيّنا وآل نبيّنا صلوات الله عليهم.. (ففي هذه الحالة هل سيكون مقام الإمام هو قائدٌ سياسي، أو مُصطلح اجتماعي، أو مُربي.. بهذه الصورة الضيّقة التي يتصوّرها البعض؟! قطعاً الإمام المعصوم هو كذلك، ولكن كلّ هذه المعاني هي في حاشية معنى الإمامة.. علماً أنّ هذه المعاني ليست من كمالات الإمام المعصوم، وإنّما هي بسبب حاجة الناس إليها..).

المُشكلة أنّ الشيعة حين يتحدّثون عن الإمامة يُناقشون في أمور هي ليستْ مِن كمالات الإمام المعصوم، وإنّما هي من حاجة الخلق.. وتركوا الجوهر الأكبر!

■ قول الإمام عليه السلام: (مَن باتَ ليلةً لا يعرف فيها إمام زمانه ماتَ ميتةً جاهليّة) ليس المُراد هنا أنّ الميتة الجاهليّة في لحظة الموت، وإنّما هو يموت في كلّ ساعة، والقرآن هو الذي يُبيّن هذا المعنى {أ وَمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس} هذا الميت بحسب أحاديث أهل البيت عليهم السلام هو الذي لا يعرف إمامه.. {فأحييناه} أي بمعرفةِ إمامه، وقول الآية {وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس} أي جعلنا له إماماً - كما تقول كلماتهم الشريفة صلوات الله عليهم.

● هذا الحديث عن الميت في القرآن الكريم هو نفس المعنى الوارد في هذه الآية من سورة الأعراف {لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ} هذا هو الميت.

● فإمامنا الصادق عليه السلام حين يقول: (مَن باتَ ليلةً لا يعرف فيها إمام زمانه ماتَ ميتةً جاهليّة) هذه المِيتة تتراكم يوماً بعد يوم، يعني (مُتّصلة) فالحديث ليس عن الموت الذي يخرج به الإنسان من الحياة الدنيوية.
هذه نفحة موجزة مُختصرة مُلخّصة يسيرة لمعنى (الصراط المُستقيم).

■ (الصراط المُستقيم) في ثقافة أهل البيت عنوانٌ خاصٌ بأمير المؤمنين عليه السلام.. أينما وجدت عنوان (الصراط المُستقيم) في آيات الكتاب الكريم فذلك هو عليٌ صلوات الله عليه، وراجعوا كل زيارات أمير المؤمنين صلوات الله عليه ستجدون هذا المعنى واضحاً أنّ سيّد الأوصياء هو الصراط المُستقيم.. وهذا التعبير على نحو الحقيقة وليس على نحو المجاز أو الكناية، كما نُخاطب الإمام الحُجّة عليه السلام في دُعاء الندبة (يابن الصراط المُستقيم) هذا تعبير حقيقي.. أنت تنسب هذا الإبن إلى أبيه، فأبوه هو الصراط المُستقيم على نحو الحقيقة.. وإذا استُعمل هذا العنوان (الصراط المُستقيم) في معنى آخر غير أمير المؤمنين فذلك المعنى الآخر هو المعنى المجازي.
(ولكن علماءنا ومراجعنا يعكسون المطلب، فيعتبرون أنّ تفسير الصراط المُستقيم بأمير المؤمنين هو معنىً مجازي! وأنّ المعنى الحقيقي هو: صراط الشريعة الواضح). بقدر ما نلتصق بهذا الصراط المُستقيم فإنّنا حينئذٍ سنعرف مِن أين وإلى أين..؟!

■ في كلماتهم الشريفة صلوات الله عليهم إمامنا الصادق يقول لأشياعه: إذا وصلتْ - الروح - إلى هنا في حالة النزع الأخير ستعرفون قدر ولايتنا حينئذٍ). مَن كان مُلتصقاً بهذا الصراط المُستقيم ستتجلّى له هذه المعاني هناك {فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد}

■ هذا الصراط المُستقيم له ظُهورات، وله صور، وله رموز وإشارات.. وهذهِ الإشارات والرموز هي هذه العبادات.. كما جاء في كلماتهم الشريفة صلوات الله عليهم: (أنّهم صلاة المؤمنين وصيامهم) هذه العبادات هي صُورهم صلوات الله عليهم.. وليس مِن الأدب أن تحترم إنساناً وتدوس على صورتهِ بحذائكَ مثلاً.. أو تضع هذه الصورة في مكان غير لائق.. إذا كُنّا نلتصق بهذا الصراط المُستقيم علينا أن نحترم ونُقدّس هذه الصُوَر بقدر ما نستطيع..
الصلاة صورتهم، والصيام صورتهم، والحجُّ صورتهم، وسائر التكاليف كذلك.. كما يقول صادق العترة عليه السلام: (نحن الصلاة في القرآن) وسائر التفاصيل الأخرى. احترام هذه الصور وهذه الرموز هو جزءٌ مِن احترامنا لهم صلوات الله عليهم أجمعين..
الإخلال بآداب أهل البيت هو إخلال بالأدب معهم صلوات الله عليهم أجمعين.. ومِن هنا جاء في كلام إمامنا الرضا عليه السلام مِن أنّ الإمامة أُسّ الإسلام النامي وفرعه السامي، فالإمامة هي الأصل وهي الفرع.. وهو نفس المضمون الذي أشرتُ إليه مِن أنّ الإمامة هي الحقيقة المُحمّدية الواسعة، وهذه التكاليف فروعها.
هذه عقيدة أهل البيت، وأمّا هذا الشائع في الثقافة الشيعية مِن أنّ أصول الدين خمسة فهذا جاءنا من الأشاعرة والمُعتزلة، وليس من عقيدة أهل البيت عليهم السلام وقد أشرتُ إلى هذا المطلب بالتفصيل في مواطن مُختلفة في برامجي.

● فمن أراد أن يعرف إمام زمانه فعليه أن يبحث عن مصادر معرفته في ساحة الكتاب والعترة (مِن العيون الصافية) وليس من ساحةٍ شُحنت بالثقافة المُخالفة لأهل البيت عليهم السلام.
الذي يتغذّى من العيون الكدرة، ويطلب المعارف مِن العيون الكدرة (المشحونة بالفكر المُخالف لأهل البيت عليهم السلام) فهو يزداد ميتة جاهلية يوماً بعد يوم.